الاب لوسيان كاتن

١٨٥١ - ١٩٢٩

بقلم

الخوري بطرس غالب

يوم الاحد الواقع في ٢٦ ايار الماضي ، ساعة توارت الشمس بين الجبال العالية المشرفة على البقاع ، انطفأ في تعنايل الحديقة الغناء ، نورٌ لمع في افق لبنان وسورية ومصر خمساً واربعين سنة ، ارسل في خلالها اشعته على العقول فاضاءها بتعليمه ، وعلى القلوب فاضرمها بحب الله وحبه ، ودفعها في سبل الخير دفعةً لا يزال تأثيرها ظاهراً حتى الساعة .

الاب لوسيان كاتن ، السويسري المولد ، الفرنسي العواطف ، اللبناني القلب ، هجر قبيلته ووطنه وجاء بلادنا التي ما كان عرفها الا بما رواه عنها رفقاؤه في الابتداء ، وتخصص لخدمة شبيبة تعشقها منذ توسم بها من الاهلية ما يجعلها جديرة بان تحلّ في المستوى البشري محلاً معتبراً يعدها اليه ما زيّنها بها الخالق من المواهب الفطرية .

الاب لوسيان كاتن ذو منزلة سامية في القلوب ، وفضل جزيل على الشبيبة . خبرتُ عن كثب ما تحلى به من المزايا الطبيعية والفضائل الفريدة التي جذبت الى طرق الصلاح عدداً عديداً من ناشئة الوطن ، فوجب عليّ ان انفح تلاميذه واحباءه ومعارفه ، وهم السواد الاعظم في هذه البلاد ، بنبذة توقفهم على حياة هذا الراهب المتواضع المطيع المتجرد عن كل حطام الدنيا ، الذي اتى اعمالاً يعجز عنها اصحاب الحول والطول بسعيه المبارك المسند الى قوة الله والى عنايته ، جاهد جهاداً طويلاً وحسناً ففاز بالاكليل المعدّ للمجاهدين .

* * *

ولد لوسيان فيكتور كاتن في اول شهر آذار ، المكرّس لعبادة القديس

يوسف ، سنة ١٨٥١ في بلدة بَرْيِر الواقعة قرب نوارمون من اعمال سوبسرة ، وقبل سرّ العماد في اليوم ذاته . فربّاه والداه التقيّان على سنن الفضيلة والتقوى ثم سلّما امره الى خادم الرعية فلقنه مبادئ العلوم وأهّبه للمناولة الاولى فتقدم من المائدة المقدسة سنة ١٨٦٢ . وما طال به الامر حتى سمع صوت الله يدعوه الى الحياة الرهبانية ، فطلب ان يسلك في طريق الكمال في جمعية يسوع ، فاستجيب طلبه ودخل دير الابتداء في مدينة كلرمون في فرنسة في اليوم السادس عشر من شهر آذار ١٨٦٨ . وكان بين الذين قضوا سنتي الامتحان معه الاب انطون صالحاني اليسوعي . فعكف المبتدئ الجديد على التمرّن على اساليب المعيشة الرهبانية وكمالها ، واذ رأى رؤساؤه حسن استعداده لاقتباس العلوم ، وللتقدم الى الدرجات المقدسة ، اوعزوا اليه ان يدرس اللغة اللاتينية ، ففعل وبرع فيها . ثم انتقل من دير الابتداء الى دير الدارسين من ابناء رهبانيته في مدينة لون له سونيه ، حيث التقى ببعض الدارسين اليسوعيين اللبنانيين كالايوين جبرائيل اده وسليمان غانم ، فاخباراه عن لبنان واحواله وارسالياته . وفي يوم عيد القديس يوسف ١٨٧٠ ابرز نذوره الاولى ثم انصرف الى اتقان المعاني والبيان طبقاً لما يفرضه القانون . وفي ٢١ آب من السنة نفسها رقي الدرجة الاولى من السلك الاكليريكي اي رتبة قص الشعر رمزاً الى تجرّده عن العالم وتخصصه لله تعالى .

في سنة ١٨٧١ نُقل الى مدرسة القديس ميخائيل في مدينة سانت اتيان فدرّس فيها اربع سنوات ، ثم تولّى رعاية فئة المتوسطين مدة سنتين .

وفي تلك الفترة رقّي الى الدرجات الصغار (١٨ ك ١ ١٨٧١) ثم الى الشماسية الرسائلية (٢٦ ايار ١٨٧٧) بوضع يد الكردينال كاثرو رئيس اساقفة ليون . وما لبث ان جاء معهد برسبورغ في المجر حيث درس الفلسفة فلمع بين اقرانه . ولما انجزها ، ارسله رؤساؤه (١٨٨٠) الى جامعة انسبروك ، في بلاد التيرول النمساوي ، فتلقى علم اللاهوت على اساتذة شهيرين مدة اربع سنوات سيم في خلالها (٢٥ تموز ١٨٨٢) شماساً انجيليّاً ، وبعد سنتين (٢٦ تموز ١٨٨٤) رقّي الى الكهنوت . ثم في اوائل السنة المدرسية أرسل الى

بيروت ليستلم فيهـا ادارة الدروس والنظام المدرسي فقام سنتين بمهمته هذه افضل قيام.

سافر الى سلوغ في انكلترة (١٨٨٦) ليقضي سنة الامتحان الثالثة طبقاً لما يفرضه القانون واستعداداً لابراز النذور الاحتفالية. ثم عين رئيساً لمدرسة القديس فرنسيس كسفاريوس في الاسكندرية (١٨٨٨) وفيها نذر النذور الاخيرة وتقيد بخدمة الرب في الرهبانية اليسوعية الى الابد.

روى الذين قضوا، باشرافه وادارته تلك السنوات الثماني، انها كانت المع سنوات تلك المدرسة الشهيرة واغزرها فائدة لطلاب العلم الذين كانوا يرتادونها عديدين. فان الصفات التي تحلى بها الاب كاتن جذبت اليـه قلوب الاهلين والتلاميذ الذي ادركوا ان بين لوحي ذلك الصدر الرحب يخفق قلب يتـدفق حناناً على الشبيبة، مملوء تفانياً واخلاصاً لها، يبذل كل ما عز وهان في سبيل خدمة نفوسها وعقولها، ولا يأنف من مد يـد المساعدة المادية والادبية متى دعت الحاجة الى ذلك.

كان الاب كاتن يسهر على دروس الطلبـة بعين يقظى يتتبع خطراتهم في سنيهم المدرسية وبعدها، لا ينتظر ان يأتي ابناؤه اليـه بل يتطلبهم بنفسه ويستفهم عن احوالهم ويجود عليهم بما يستطيعه. وهذه المزايا التي امتاز بها في الاسكندرية بلغت حدّ الكمال بتوالي الايام، ولم تكن معرفته الشبيبة وخيبة آماله بعض الاحيان الّا لتزيده تعلقاً بها، معتقداً ان الاب لا يجب ان يثنيـه عن العناية بابنائـه هفوات او خطيئات تصدر منهم، بل عليه ان يضاعف السهر والمحبة ليحفظهم في جادّة الدين والآداب. وكان كل من يهتمّ بـه الاب كاتن يظن ان الاب كاتن لا شغل يشغله عنه. ولما قرر الرؤساء الغـاء مدرسة الاسكندرية بعد الحرب الكبرى، تأثر الاب كاتن لانه كان قد تعب فيها كثيراً، لكنه لم يتذمر ولم ينتقد، بل حبّذ العمل الذي قضى على اتعابه مدة ثماني سنوات.

واذ ظهرت مقدرة الاب كاتن الادارية وسلطته على القلوب، دعاه الرؤساء الى بيروت ليسلموه شؤون المكتب الطبي، وارشاد جمهور الكلية الروحي.

وكانت بناية المكتب الطبي في ذلك الحين هي بناية مكتب الحقوق اليوم . فذ استلامه وظيفته نفخ في الطلبة والاساتذة روحاً جديداً ، فتقدم المكتب تقدماً عظيماً على توالي الايام ، فاخذت فكرة نقله الى محلّ اوفر مناسبة تشغل عقل الاب كاتن لان البناء ضاق بساكنيه ، واصبحت معداته غير كافية لتمرين الطلبة على الاعمال الطبيّة والاختبارات .

ولم تلهه مشاغله الادارية عن القيام بوظيفته الروحية فخصص لنفوس الشبان كل ما اتصف به من حكمة ومحبة وعزم ما جعلهم يعتقدون ان في قلب الاب كاتن مستودع حب سام لا ينضب ، فصارحوه بكل ما كان يؤلم نفوسهم ويقلقها ، وكان يصعب على الاب كاتن ان ينسب الى الغير سوء النية او تعمد الشر .

وما اكتفى الرؤساء بما اقوه على عاتقه من الاثقال ، بل كلفوه ادارة كلية القديس يوسف ، فتولاها مدة ثلاث سنوات بعد الاب جبرائيل اده الذي كان انالها من حسن السمعة والشهرة ما اوجب على الرئيس الجديد ان يبذل قصارى جهده في حفظ مقامها بل في اعلاء شأنه وقد وفقه الله الى ذلك . وفي اثناء رئاسته هذه أحبت جمعية الطلبة القدماء . وكان له اليد الطولى في تأسيسها ، غايته منها حفظ الشبيبة بعد خروجها من المدرسة وتوطيد علائقها مع مرشديها واساتذتها ، وضم كلمتها ليكون لها مقدرة على ادارة حركة الافكار وتطوراتها لانها نخبة شبان البلاد ومحط آمالها .

اما الاب كاتن رئيساً فلم يختلف عنه مرشداً . فكان يستدعي التلاميذ فرداً فرداً ويستوضحهم عن احوالهم النفسية والصحية والمدرسية موبخاً بتؤدة ، مشجعاً ناصحاً ، نافخاً روح التقوى والاجتهاد ، واثقاً بواعيدهم الى ان يخيبوا اماله فيصرفهم وكان هذا الامر نادراً . كان التلاميذ يحبونه ويتهيبونه . وكثيرون كانوا يخشون قربه ، لان هيبة الوقار تجلله . لكن اوهامهم كانت تتلاشى حين يعرفونه عن كثب ، وهو الصديق الحميم يُعنى بمن يلجأ اليه كانه اخوه او ابنه ، ينفتح له قلبك فيلجه ويستلكه ، فتشعر ان محبته تسري فيك وتكتنفك فتبادله اياها وتتعلّق به .

اما سرّ هذه السلطة في الاب كاتن فهو تفوقه في فضائله وسمو اخلاقه

المبني على اخلاصه للسيد المسيح في خدمة النفوس . وقد حقّ لاحد الذين عاشروه وخبروا اعماله وهو من علية رجال الاكليرس ان يقول : « اعتقد ان الاب كاتن لم يأتِ عملاً لم تدفعه اليه غاية فائقة الطبيعة . »

ولما انتهت مدة رئاسته على الكلية ألقيت اليه مقاليد الرسالة كلها ، مع تبعة ادارة مدرسة الطب (١٩٠٢ — ١٩٠٧) فلم يعبأ بالحمل بل توكل على الله وسار في سبيله ، وهو الرجل الذي لا تريعه مسئولية مهما عظمت لان استناده ليس الى نفسه بل الى الله تعالى . زار ادبار المرسلين اليسوعيين والمدارس التي يديرونها ففرح قلبه بما رآه من الخير . ولذا كان يحرّض دارسي الرهبانية على ان يتعلموا اللغة العربية لتصبح بين ايديهم صلة تفاهم ووسيلة لنشر المبادئ الصحيحة ليربحوا النفوس للمسيح .

ومما عُرف عنه انه كان يدفع الطلبة الى تعلّم اللغة اللاتينية اعتقاداً منه ان لآدابها تأثيراً صالحاً في التهذيب والتثقيف ، لانها توجب على العقل التمرّن على كشف ما استتر من المعاني في قوالب التعبير المختلفة الاشكال بل كان يرمي الى افضل من ذلك وهو ترويج الدعوات الكهنوتية لان تعليم الشبيبة ما هو كافٍ لكسب المعاش والاستخدام يبقي العقل على حالته ويقف عقبة في طريق النفوس ، ويمنعها من ان تصبو الى ما هو اسمى من الامور الدنيوية ، اي الى التقيّد بخدمة الله والتخصص بها .

قلت ان ترقي المكتب الطبي والسمعة التي حازها في الشرق والغرب استوجبا تشييد مكتب جديد فسيح الارجاء مجهّز بكامل المعدات التي يقتضيها الطب الحديث من آلات ومختبرات وحدائق وقاعات تشريح وتدريس ومتحف ، فاخذ الاب كاتن يمحص فكرة تحقيق هذه التمنيات بعد ان اعرب عنها رؤساء اللجان الفاحصة التي كانت ترسلها الحكومة الفرنسية لامتحان الطلبة . فانهم كانوا يرون بام عينهم تقدّم التلاميذ وحسن استعدادهم ، ويقابلون بينها وبين الوسائط الموضوعة بين ايديهم فيظهر الفرق عظيماً ولاسيما حينما كانوا يشاهدون ما هي عليه الجامعة الاميركية من السعة في ماليتها ودورها ومستشفياتها .

وكان اول ما سعى اليه وناله تعيين لجنة طبية تركية تشترك في امتحان

الطلبة لتعطيهم الشهادة المؤذنة لهم بمارسة فنهم (١٨٩٨) ولا بد من التنويه بفضل مسيو پول كامبون سفير فرنسة في الاستانة وهو الرجل الذي خدم بلاده خدمات جلى بسوء مداركه وحكمة مسلكه.

عرض الاب كاتن فكرته على رؤسائه فاستصوبوها وتقرر ان تبني الرهبانية اليسوعية المكتب الطبي على الطراز الجديد ، بشرط ان تأخذ الحكومة الفرنسية على نفسها بناء المستشفى الذي يبقى ملكها ، لكن ادارته تسلم الى ادارة المكتب الطبي. وللوقت ابتاع الاب كاتن الارض الفسيحة التي يقوم فيها الان المكتب الحديث ، وسافر الى فرنسة يسعى للحصول اولاً على زيادة المال المخصص من الحكومة راتباً للاساتذة لان عددهم اصبح غير كاف ، ثم وصولاً الى المال اللازم لبناء المستشفى سواء كان بطريقة رسمية او باكتتاب وطني يشترك فيه جميع الفرنسيين ، لان العمل عمل افرنسي يتوقف على ثباته ونجاحه نفوذ فرنسة وسمعتها.

طالعت في مذكرات الاب كاتن تفاصيل جهاده ، فادهشني ثباته ورباطة جأشه تارةً يبرق له الامل وتارة يمثل امامه شبح الفشل . لكنهُ لم يقنط قط وقد وضع اتكاله على القديس يوسف شفيعه المشفع ومحامي الكلية بكل اجزائها . وقد رأيت في سيرة حياته ان اغلب اعماله قد تكللت بالنجاح في شهر القديس يوسف . والحق يقال ان القديس يوسف سهّل طريقه في ايام كانت الحكومة الفرنسية في ايدي رجال عُرفوا بمناهضتهم الاكليروس ، لكنّ الله الذي سخّر غامبتا لان يتفق مع الاب نورمان على بناء المكتب الطبي ، حمل رجال ذلك العهد على تشجيع الاب كاتن ومدّ يد المساعدة الى مشروعه .

سافر الى باريس مراتٍ لينجز عمله فنال زيادة المرتبات وتوفق الى ادماجها في موازنة الحكومة ، ثم تعرّف الى رهط من القوم الكرام لم يبخلوا عليه بمساعدتهم الادبية والمادية ، وها اني ذاكر اخصّ من ذكرهم : اولهم مسيو سينار رئيس لجنة جمعية اسية الفرنسية ؛ مسيو روبر ده كه امين سرها ومحرر مجلتها ؛ مسيو اندره تارديو رئيس تحرير جريدة «الطان» اذ ذاك الذي تحمس لمشروع الاب كاتن تحمساً شديداً ، فكان اول من كتب مقالة مهمة في «الطان» بهذا الشأن

فنقلها اغلب الصحف الكبرى في باريس والولايات ؛ الاستاذ بلانشار وعموم الاطباء اعضاء اللجان الفاحصة ؛ مسيو ڤيكتور برار الذي القى عدة محاضرات بليغة كان لها الوقع الحسن. ثم جمعيات غير هذه اتفقت معاً على فتح الاكتتاب الوطني الذي جمع مبلغاً من المال لا يستهان به غير انه لم يكن كافياً ، فسعى الاب كاتن لدى اللجان المختلفة المكلفة توزيع بعض الاموال في الحكومة • فنال منها قسطاً وافراً ايضاً.

عند ذاك رجع الى بيروت واهتم باعداد حفلة وضع الحجر الاول من البناية الجديدة وتبريكه ، فتمّ ذلك في ١١ ت ٢ ١٩١١ برئاسة مسيو كوجه ، ممثل الحكومة الفرنسية وضباط الطراد غامبتا ، والرؤساء الروحيين يتقدمهم نيافة القاصد الرسولي السيد فريديانو جياننيني . وقد وضع تصميم البناية الاب يوسف مَيْرَن المهندس المشهور بالاتفاق مع الاب كاتن الذي كان يبدي آراء صائبة في مواضيع مختلفة منها تشييد كل من معاهد المكتب مستقلاً عن الآخر.

وفي ١٩ ت٢ ١٩١٢ ، اي سنة بعد الشروع بالعمل ، دُشّن المكتب الجديد في حفلة حافلة اشترك فيها مع ممثل فرنسة والاميرال دارتيج دي نورنه، القاصد الرسولي وبطريرك السريان ومطارنة الطوائف الكاثوليكية ، والاب شانتور رئيس اقليم ليون آنئذٍ ، ورهط من رجال الدين والدنيا وتلاميذ الكلية..

وفي حفلتي وضع الحجر الاول والتدشين أُلقيت الخطب المستعة ، اقتطف ما قيل فيها عن الاب كاتن : قال مسيو كوجه في ١١ ت٢ ١٩١١ ذاكراً ان الحكومة الفرنسية قلدت الاب كاتن وسام جوقة الشرف من رتبة فارس: « ان صليب جوقة الشرف لم يوضع قط في غير محله. لكني لا اخشى ان اقول انه لم يعلق على صدر اكثر استحقاقاً من صدر الاب كاتن . اذا ابلت كتيبة البلاء الحسن في القتال زُيّنت رايتها بالوسام ، فالاب كاتن هو راية المكتب الطبي الفرنسي المجيدة.»

وفي حفلة ١٩ ت٢ ١٩١٢ قال نيافة القاصد الرسولي : «ان هذا المكتب ظهر للوجود كامل التجهيزات كما برزت ميزرفة إلهة الحكمة كاملة العدة من

رأس المشتري.» وزاد الاستاذ دهلاپرسونّ رئيس اللجنة الفاحصة : «ان الاب كاتن يشبه موسى الكليم ضرب صخرة بيروت بعصاه السحرية فاخرج منها ينبوع العلم التي يرمز اليها هذا المكتب الذي تمّ بناؤه في برهة احد عشر شهرًا» وحيّا الدكتور الفرد خوري «الرجل الذي كان روح المكتب القديم ونبراسه» وقال:« اننا مدينون لك بما انك كنت لنا لا استاذًا يفيض من كنوز معارفه العلوم ويكشف لنا انواع الفنون ويشربنا دقائقه ، بل كنت المعلم الذي لم يفرض علينا ان نعتقد اعتقاده بل احترم اعتقادنا وتوصّل بدون احتكاك او صرامة ان يلقّنا علم القلب واركان المحبة والشفقة والتجرد وجميع الخلال التي تؤلف قوّة الطبيب الادبية وتجعل الطب نوعًا من الكهنوت ، المعلم هو الذي يسمو بنفوسنا الى مستوى نفسه فيوحي اليها ان تشاركه في ايمانه وامانيه بل يوجب عليها ذلك بقوة نفوذه فيها وسلطته عليها.»

وكانت المجلات الفرنسية كما قلنا تناولت هذا الموضوع وذكرت الاب كاتن في معرض تلك المقالات ، واطرأت مناقبه ، من ذلك قول مسيو ڤيكتور بزار:« ان المكتب الطبي يديره رجل متفوّق هو الاب كاتن فانه ليس رجل علم فحسب ، بل سياسي بارع متوقد الذهن كيّس المعشر والمعاطاة يسحر الالباب بلطفه وظرفه . هو سبب تقدم المكتب الطبي ونجاحه وهما انه شرع بنشاطه المشهور في ادخال ما يقتضيه الفن من التغييرات والتكميلات في المكتب الذي تكرس لانجاحه.»

وكتبت مجلة «الصحافة الطبية»: «ان روح هذا المكتب هو الاب كاتن مديره منذ سنة ١٨٩٥ ، وهو الرجل الممتاز باقدامه ومقدرته الادارية ومضاء عزمه وجلده وثباته على العمل وتواصل سعيه.هو الذي رقّى المكتب في معارج الفلاح فجعله ما نراه الآن.» .

وبعد ان تمّ للاب كاتن ما سعى اليه ، رأى الرؤساء انه لا بد من ان ينصرف مدة الى الراحة فسلّموه خدمة جمهور الكلية الروحية والعناية بفئة الكبار الداخليين واخوية المتوسطين (١٩١٣ — ١٩١٤) وفي آب سنة ١٩١٤ اشتعلت نار الحرب الكونية فاضطر الاب دهمرتيري رئيس المكتب الطبي ان

يغادره الى فرنسة فأعيد الاب كاتن الى عمله الاول بالوكالة ، وعُهد اليه بتدريس صف الفلسفة . لكن في ١٢ ت٢ تفرّق الاباء والتجأ الاب كاتن الى القصادة الرسولية وبقي فيها الى ان اتيح له ان يسافر الى ليون ، فوكلت اليه العناية بخدمة طلّاب الطب الروحية بمستشفى الصحة . وبعد عيد الفصح قصد الى باريس لترويج فكرة المطالبة بسورية وفلسطين . ثم عين رفيقاً للاب شانتور رئيس اقليم ليون (١٩١٥ — ١٩١٨) حتى عقدت الهدنة بين فرنسة والمانية. عندئذٍ بادر الى الرجوع الى ميدان جهاده فوصل بيروت يوم عيد الميلاد ١٩١٨ . وفي اول كانون الثاني استلم ادارة الكلية من جديد.

يعلم الله فرح الاب كاتن لدى مشاهدته ارض لبنان العزيزة ، فانه لم يكن ليصدق ان هذه البلاد تتحرر وان امانيه تتحقق. ولكن منظر الخراب الذي حلّ بلبنان المخلص لفرنسة قد احزنه شديد الحزن فسعى جهده لتتميم اماني اللبنانيين باستقلالهم الذاتي ، ولا يجهل احد ما كان سعيه لدى المقامات جميعها لتعطف على لبنان وتخلصه من الجوع اولاً ، ثم من الحالة المريعة التي كانت الحرب قد اوصلته اليها . ويوم سافر البطريرك اللبناني الجليل الى باريس ليطالب باماني اللبنانيين ، كان الاب كاتن وتلاميذه القدماء في مقدمة المودعين فحملوا البطريرك على الاكتاف مظهرين تعلقهم به واحترامهم اياه وتنتهم بمساعيه.

وسنة ١٩٢٠ بلغ الاب كاتن السنة الخمسين من حياته الرهبانية فاحتفل بها احتفالاً عائليًا . ثم لمّا هدئت الاحوال واجتمع شمل التلاميذ القدماء قرّروا تأسيس كرسي مجانية لتهذيب ابناء رفاقهم الذين اصبحوا عاجزين عن القيام بهذا الواجب . فجاء عملهم مطابقاً لاحبّ رغائب الاب كاتن واشهاها . ثم ان الحكومة اللبنانية اقراراً بفضل الاب كاتن على هذه البلاد علقت على صدره الجليل مدالية الاستحقاق واليك ما جاء في الاسباب الداعية الى ذلك :

« تكرّس الاب كاتن مدة تفوق الاربعين عاماً لتعليم الشبيبة اللبنانية وتهذيبها واستلم رئاسة الكلية والرسالة والمكتب الطبي . فكان اينما حلّ مثال التفاني وخدم البلاد خدمات جلى .. في اثناء الحرب الكبرى واصل خدماته لبلادنا لدى السلطات الفرنسية ، والرأي العام الفرنسي. »

ولما استلم الاب كاتن رئاسة المكتب الطبي بعد الحرب عاد يعالج فكرة انشاء المستشفى وكانت قد همدت . فسعى كعادته متوسلاً الى القديس يوسف فتوفق ، واراد الله ان يعزي قلبه فجرت حفلة تدشينه في عهده . ثم حين رأى الرؤساء ان قواه الجسدية آخذة بالانحطاط بسرعة ، مع بقاء سلامة عقله المتوقد وقلبه الذي لم تؤثر فيه الشيخوخة ، احالوه الى الراحة . واليك بعض ما جاء في كتاب الجنرال ڤيفان الحاوي اجازة الاب كاتن بصفته رئيس المكتب الطبي (٣٠ ت ١ ١٩٢٣) : « ان الاب كاتن بصفته رئيس الكلية والرسالة والمكتب الطبي قد اظهر في الوظائف العالية التي شغلها مقدار صفاته العالية وعنايته بالتلاميذ والطلبة الذين أثّر فيهم تأثيرًا شديدًا ، واسمه سيبقى مقروناً بنوع خاص باسم هذا المكتب الذي يبرحه اليوم مثقلًا اياه بدَين تفانيه المتواصل وغرّه العظيم المتمم بالمستشفى الفرنسي المنشأ حديثاً . واني لاغتبط ان يرى الاب كاتن رقي هذه المؤسسة اكليل مساعيه الثمينة . »

على ان الاجازة التي نالها الاب كاتن لم تعد اليه قواه ، فوكل اليه الرؤساء امر الاهتمام بشؤون الاخوة المبتدئين في كلية القديس يوسف وبعد سنة عيّنوه رئيساً لدير تعنايل ليستريح فيه ، محوّلًا افكاره عن الاشغال العقلية مكتفياً بملاحظة اعمال الحراثة ممتنياً بالاشجار والثمار والبقول وبمناظرة مدرسة المعلّمين .

وفي سنته الاخيرة اتى بيروت فقابلته وسألته عن صحته فقال : « ان القالب قوي لكن الاعضاء لم تعد صالحة لخدمته . » ثم اشار الى السماء وقال : « هناك الراحة . » والحق يقال ان حالته لم تكن خافية عليه ، ولا حاول ان يخدع نفسه ، بل ازداد استعداداً للملاقاة ربّه وتجرّداً عن العالم وعن كل ما كان يمكن ان يبعده عن الله تعالى .

شاءت العناية ان تعزّي قلب الخادم الامين في يومه الاخير فقيّضت له ان يلتفّ حوله قبل مغادرته ميدان جهاده المجيد نخبة تلك الشبيبة التي افنى انضر سنيه بحبّها وخدمتها وتهيئتها للنهوض بالوطن عن اقوم الطرق واسدّها ، مهذّباً اخلاقها ، منيراً عقولها ، مالئاً قلوبها من العواطف النبيلة لتعطي ثمارها الشهية في

حينها . وممثلو تلك الشبيبة هم اعضاء النادي الكاثوليكي ، ابناء العذراء مريم ، الذين اتوا معبد سيدة التنزه يطلبون شفاعتها . فابتهج قلبه بهم وسرّ لرؤيته حوله بعض اصدقائه القدماء كالفيكونت دوبرده كه وابن الكونت ده سرسي وغيرهما . فغاض قلب الاب وتدفقت عواطفه كالسيل فتقطعت الربط اللطيفة الدقيقة التي كانت تربط نفسه بجسده الفاني المنهوك القوى ، فطارت الى السماء في جوّ صافٍ هادئ دون ما عذاب ، كما كان يشتهي ويطلب من الله لئلا يكون سبب انزعاج لاخوته . وكان قبل وفاته ببضع ساعات استحلف تلك الشبيبة ان لا يتخلف احد منها عن الموعد الذي ضربه لهم في السماء لبعد العمر الطويل المملوء اعمالاً طيبة مفيدة لهم ولبلادهم . على ان يسمعوا نداءه الاخير ويوفقوا بين حياتهم وارشاداته ، فيلتفوا حوله في المجد الابدي كما احاطوا به على الارض في حياته وعند مماته .

وما انتشر نعي الاب كاتن حتى عمّ الحزن جميع البلاد ، ووردت التعازي من كل فج وصوب واوقف المجلس النيابي اللبناني جلسته حداداً .

نقل جثمان الاب كاتن الى بيروت حتى لا يعاني اصدقاؤه الكثيرو العدد

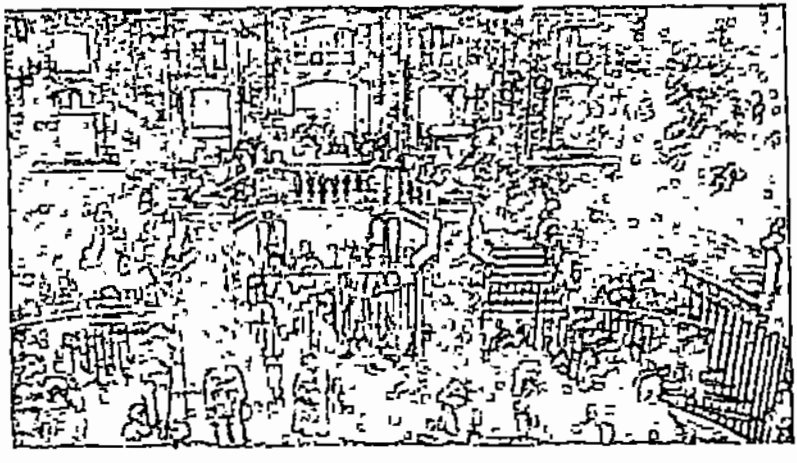

صورة نعش الاب كاتن محمولاً على الاكف ، بعد حفلة الجنّاز

مشقة السفر الى تعنايل . وبعد الصلوة عليه في معبد الكلية في محفل حافل اشترك فيه سبعة اساقفة ، وممثلو الرهبانيات ، ورئيس الجمهورية اللبنانية ، وممثل

المفوض السامي ، ومجلس الوزراء ، وعدد عديد من النواب ودور العلم والجمعيات على اختلافها ، دفن باكرام في لحد الكلية الخاص بين العبرات. ورغم الحاح الآباء بان لا تُرسل اكلة وازاهر جي. بعدد منها من قبل الوزارات وجمعيات الاطباء والصيادلة والمحامين.

وقد أبنه الاب شانتور رئيس الرسالة بكلام بليغ مؤثر وفاه به حقه من الوصف كراهب ، ورئيس ، ورجل ادارة ، وقائد نفوس.

ونختم بفقرات وجيزة من كتابي صاحبي الغبطة بطريرك الموارنة وبطريرك الروم الكاثوليك. قال الاول: « تلقيت بجل. الاسف وشديد التأثر نعي الصديق الحميم والرسول العظيم ... ان الخسارة التي اصابت الرهبانية اليسوعية قد اصابتني فانها فقدت به افضل ابنائها ، اما انا ففقدتُ اشدّ اصدقائي اخلاصاً ووفاء ... خسارة البلاد به عظيمة جداً لان الاب كاتن كان ذا قلب كبير خبرتْ البلاد حسناته وغيرته الرسولية وعقل متسام ارسل عليها انواره ... اننا مدينون له بنخبة قومنا ... لم ينقطع حتى آخر نسمة من حياته عن التعليم مبشراً بالحقائق ونافخاً حبَّ الوطن والمبادئ السامية ... فباسمي وباسم هيئة المطارين الموارنة اعرب لكم ولسائر جمهور الآباء عن تعازينا القلبية سائلاً المولى ان يجزل ثواب الفقيد العزيز ويلهمكم جميل الصبر على فقده ويجعل الرهبانية اليسوعية ابداً منبت رسل الكنيسة وجنودها »

وقال الثاني : « ان الاب كاتن المأسوف عليه كان رجل العلم والجد الذي وصفه السيد المسيح قائلاً انه يخرج من ذخائره جدداً وقدماً ... كم من الرجال العظام هيأ لبلادنا بتأثير مثله وقوة عارضته وكبير نفوذه في النفوس ... ان خسارة الاب كاتن خسارة وطنية حقاً اصابت لبنان وسورية. »

واخيراً اقول مع الاب شانتور انه حيثما كان يمرّ الاب كاتن كان يخيَّل ان كلية القديس يوسف ، ان لبنان ، ان سورية تمرّ متجسمة فيه. » سقط على وجهه في الميدان بعد ان « ملأ كل الشرق الادنى بمآتيه المدهشة وشخصيته البارزة. ويحق للبنان ان يقول مع امين جمعية التلاميذ القدماء الاسبق السيد اميل خاشو: ان محيا الاب وحياته وعمله اصبحت من تراث الاجداد المجيد. جزاه الله عداد مبراته.

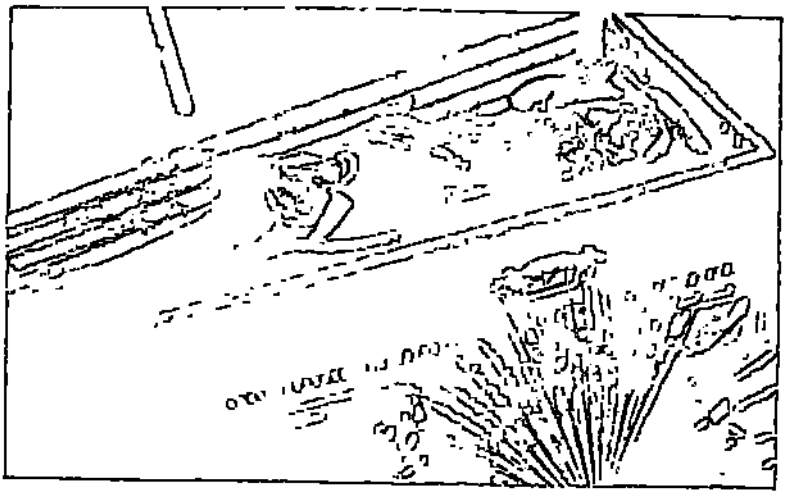

قلب الاب كامنه

« ... ولكن اريد ان تعرفوا ان في هذا الجسم الهرم عضوًا لم يهرم ، ولا يقدر بل لا يعرف ان يهرم ، الا وهو قلب الاب كامنن ... »
(من كلمات التقيد الاخيرة)

اجل ! لقد شاهدناه لآخر مرة في تمثايل ، قبل ان يترك هذا العالم ببضع ساعات ! ...

شاهدناه بخطاه المتثاقلة ، بلحيته المؤلجة البيضاء ، بجفونه المثقلة ، بمنظره المهيب الجليل . شاهدنا ذاك «الجسم الهرم» !

ولكننا شاهدناه ايضاً بابتساماته العذبة الدافقة الى الاخلاص والاطمئنان . شاهدناه بعينيه ، اللتين لجأت اليهما الحياة فلمعتا بنور الحياة ، تفتشان في عيرنا عن آثار حياتنا المدرسية الماضية ، وقد حفها الزمان بجوادثه وجللها التذكار بوقاره . شاهدناه بصوته المتهدج ، ونبراته المتقطعة ، وكلماته التي كانت تزحمها العواطف فتدفعها متأثرة ، مؤثرة . شاهدنا ذاك القلب الذي « لم يهرم ، ولا يقدر بل لا يعرف ان يهرم ! »

شعرنا بقلب كبير ينبض قوةً في صدر ضغطت عليه السنون فاثقلته ، ويتحرك حياة في جسد اتعبته الاماني فقادته الى الفناء ، ويذوب غيرةً وتضحية في سبيل من احبهم واحبوه ...

احبّ الاب كاتن تلاميذه العديدين صغارًا وكبارًا ، فتيانًا وكهولًا . فجعل لهم جميعاً ، ولكل واحد منهم ، مركزًا خاصاً في قلبه لم تكن كرور السنين وتقلبات الاحوال الا لتزيده تأصلًا وخلوصاً . فكان لهم ، انى اتجهوا وحيما عملوا ، صديقاً صدوقـاً ، ومرشدًا حكيماً ، يتتبّع اخبارهم باهتمام الاب الشفيق ، ويرعاهم بعين الام الحنون.

كم من قلب صغير هالته الواجبات المدرسية ، فجعدت جبينه النضر هموم الدرس ، وقرّح جفونه اللطيفة خوفُ القصاص ، دعاه الى قلبه الرقيق فنشف دموعه ، وازال همومه ، وهوّن عليه صعوباته ، وردّه فرحاً جزلًا الى واجباته !

كم من قلب فتيّ زاغ عن جادّة الصواب ، فتاه بين زوابع العصر وعواصف العالم ، حتى تذكر ان له قلباً لا يزال يحبه وينتظره ، فرجـع تائباً يجتني من ذاك الينبوع الصافي المغفرة ، والطمأنينة ، والسلام !

كم من قلب كهل صدمه الدهر بكل ما في صروفه من صلابة وقساوة ، فانحنى ؛ ثم تابع عليه مصائبه فزلزل اركانه ، وضعضع آماله ، وسدّ في وجهه ابواب الخلاص . حتى لم يجد المسكين ملجأ الا قرب ذاك الاب الذي احبه صغيرًا ، وارشده فتى ، واستقبله كهلًا ، فانعش فيه ميت الامل ، وردّ اليه قوة الحياة ، فرجع الى الميدان مسلحاً ، وعاد ظافرًا !

كم من قلب شيخ خصه القضاء برزاياه ، وحاقته الحياة ببلاياها ، فنغصت عليه ما تبقى له من الايام. فنظر الى قبره ، وقد اظلمه الاسى ، فارتاع ؛ وكاد يستسلم الى اليأس . لولا ان تداركه ذاك القلب النيّر فبدّد مخاوفه ، واحكم تعزيته ، ونوّر امامه طريق القبر ، فسار اليه مطمئنًا ، واستقبل الموت صابرًا !

هؤلاء الصغار ، والفتيان ، والكهول ، والشيوخ ، كانوا ماثلين على مائدة تمثايل باشخاص الستين بصورًا من نادي الشبيبة الكاثوليكية الذين شاؤوا ان يحيّوا اباهم في مقرّ راحته ، فساروا اليه يوم الاحد ٢٦ ايار ؛ وشاءت العناية الالهية ان تكون تحيتهم وداعاً لذاك الشيخ الجليل...

رأى الاب هذا الجمع من اعزّائه يحفّونه بالعناية فتأثر ، ورأى وراء هؤلاء الستين ، المئات بل الالوف من ابنائه المتفرّقين في جميع انحاء الشرق العربي ،

فاحسّ بعواطفهم جميعاً تتلمّس السبيل الى قلبه الكبير الطافح ، فلم يتمالك ذرف دموع الفرح. وكأنه علم « ان ساعته قد اتت لينتقل من هذا العالم الى الآخر . وكان قد احبّ خاصته ... احبهم الى الغاية » فلم يتمالك التعبير عن شعوره. فلفظ ، بين التصفيق الحادّ والهتاف المتواصل ، كلمات نبوية كانت آخر ما لفظه ذاك اللسان ، وآخر ما عبّر عن ذاك القلب . وهي تظهر لنا الآن بكل ما فيها من رقة وحنوّ تخفها روعة الموقف ، وعظمة الموت . فهي خطبة وداع على باب القبر ، وكلمة موعد قريب في ديار الخلود:

«لقد اوليتموني بمجيئكم الى هذا المنزل سروراً عميقاً طبيعياً ، لانه ليس من شيء الذّ به اكثر من ان استقبلكم في نهاية حياتي. لقد عرفتكم جميعاً ؛ بل رأيت ، عندما نظرت اليكم ، جميع رفقائكم وسابقيكم ، جميع تلاميذي القدماء الاعزاء الذين توالوا اعواماً متتابعة ولم انس احداً منهم ... على ان اجتماعنا هذا قد يكون آخر اجتماع ... فها انا قد صرت شيخاً هرماً ضعيفاً ، ولم يبق لي الا القليل ... ولكن اريد ان تعرفوا ان في هذا الجسم الهرم ، عضواً لم يهرم ، ولا يقدر بل لا يعرف ان يهرم ، الا وهو قلب الاب كاتن . انا اشعر بانني سافارقكم عما قليل .. ولكن لي الامل الوطيد باننا سنجتمع بعد اليوم في عالم خير من هذا ، في عالم لا نعرف فيه النقصان ... واني انتظركم هناك واثقاً ، اميناً في حبكم. فالى الملتقى ، يا ابنائي الاعزاء ! الى الملتقى ، واحذروا ان يتخلف احد منكم عن الموعد ! »

ثم خرج في عاصفة من الهتاف تتدافعه التأثرات العميقة ، وتتصادمه العواطف الشديدة ، حتى لم يقوَ عليها ، فانفجر القلب ، وتهافت الجسم !

وهذا مصير القلوب الكبيرة . تحبّ ، وتعمل ، وتتأثر ، فتتغذّى وتغذي غيرها بالعواطف السامية الى ان تذوب في سبيل الغير ، فتسكن !

اما تلك النفس النيّرة فعادت الى مصدرها من منبع النور السماوي !

واما ذاك الجسم التعب فرجع يستريح في مقرّه من التراب !

واما ذاك القلب ، الذي نبض طول حياته في سبيل انعاش القلوب ، فهو حيّ بحياة القلوب !

فؤاد افرام البستاني